يلتهم نفسه بادئًا بقدميه

عبدالله الزيود

رواية

عصير الكتب

يلتهم نفسه..
بادئًا بقدميه!

الكتـــــاب: يلتهم نفسه بادئًا بقدميه
المـــؤلـــف: عبد الله الزيود
تنسيق داخلي: سمر محمد
تدقيق لغـــوي: مهند ماهر جندية
مصمم الغـلاف: نذير الزعبي
الطبعة الأولـى: يناير 2021
رقم الإيـــداع: 2021/299
I . S . B . N: 978-977-992-146-4

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

يلتهم نفسه..
بادئاً بقدميه!

عبد الله الزيود

هذا كل ما لديَّ: الكتابة؛ لستُ أعرف طريقة أسمى للعيش، ولا مَهرَب من كل حزن الكون.. سواها.

مقدمة

في عام ١٩٩٠ اقتحمت شاحنة بيضاء صغيرة الحجم من طراز «دايهاتسوا» بيت العائلة المكونة من أم وابنها الواقع في حي النزهة في مدينة الزرقاء، ثاني المدن الأردنية الكبرى بعد العاصمة عمان.

قطعتْ فتاة تلبس مريولًا مدرسيًّا أزرق الشارع أمام السائق الذي كان يصعد بشاحنته واحدًا من أصعب المنحدرات في المدينة؛ ما اضطره إلى الضغط على كوابح المركبة، توقفت الشاحنة عن الصعود ثم شرَعت بعد الوقوف اللحظي بالتقهقر بتسارع مطَّرد إلى أسفل المنحدر، حيث اصطدمت بباب معدني مهترئ وأكملت طريقها إلى داخل مخزن تجاري قديم.

كانت فاطمة منشغلة بسكب الطعام، وتلاوة دعاء عن البَرَكَة وسَعة الرزق قبل أن يُسقِط الطفل من يده ملعقة الطعام محدثةً قرقعة لم يلحظها أحد فوق صَبة الأسمنت.

بلع الطفل ذو العشرة أعوام ريقه، ثم رفع عينيه إلى الأعلى محدقًا إلى ما يظهر من جسد أمه العالق في الهواء بين صندوق الشاحنة مُقشَّر الطلاء وجدار المخزن الذي كانا يعيشان فيه.

كان مشهد أمه فاطمة، وهي مشدوهة العينين، وفي شفتيها انفراجة ضئيلة، مثل تمثال متقن لامراة تموت في الأربعين قبل أن تحظى بفرصة سانحة للصراخ، آخر ما رآه قبل أن تنحني -على غير عادتها- داخل صندوق الشاحنة التي أحدثت ارتجاجًا عنيفًا هدأ بعده كل شيء.

***

الفصل الأول

Sonder

من شباك «كولاتشينو» المطل على شارع الكرامة، لمحتُ عامر، صديقي الذي تعرفتُ إليه للمرة الأولى هناك، قفز بسرعة وخفة من سيارة الأجرة، ودون أن يلتفت خلفه، أزال سمَّاعة الهاتف من أذنه اليسرى، وصوَّب نظره نحوي، ثم ابتسم وهو يلوح لي بيد شبه مفتوحة قبل أن يدخل إلى المقهى.

هناك، في ذلك المقهى بالتحديد، تعرفتُ للمرة الأولى إلى قاموس الأحزان الغامضة

The dictionary of obscure sorrows

وإلى الكلمة التي ستعيش معي كل يوم كما لو أنها تسبيحة أو تميمة:

– Sonder

سألته:

– ما الذي تعنيه هذه الكلمة يا عامر؟

– أن تدرك أن لكل شخص في هذا الكون قصته الفريدة يا رجل، أنّ لأيٍّ من المارَّة حياة حيّة ومعقدة مثل حياتك.

صمتْ

سألته وهو يقترب من الكرسي رافعًا حمالة الحقيبة عن كتفه:

– ما الذي أخَّرك؟

لم أكن أنتظر إجابة بقدر رغبتي في فتح باب للحوار.

أجاب دون أن ينظر إليَّ:

– الحبكة يا رجل.

ثم التقط قطعة من البسكويت الذي في صحني ووضعها في فمه.

– Sonder.

قلتُها بصيغة سؤال.

أجاب دون أن يلتفت:

– Sonder.

– كيف تستطيعُ أن تفرِّق بين ما يحدث معك.. في الواقع أعني، وما يحدث في الكتابة؟ هل تعرف كلمة تصف هذه الحالة؟

– أعرف كلمة تصف صاحبها.. ستكون عنوانًا لروايتي حين أنجزها.

سألته:

– ما هي؟

لكنه لم يجب، وتابع من حيث يرغب في المتابعة:

– اسمع! هذه بداية ركيكة!،

بدا واضحًا أنه قد ضاق ذرعًا بكل البدايات التي جمعتنا معًا، أدار عينيه في محجريهما كما لو أنه يبحث عن شيء عميق خلفهما:

– إن كان ثمة من حوار في قصة نحن أبطالها، فلا بد أن يكون مختلفًا.

ثم أخذ يجول بعينيه في المكان.

– قصة! قصة لقاء اليوم؟

– كل يوم، نحن حبكة جانبية في قصة الكون يا رجل، أنت بطل قصتك التي تصحو لتكمل كتابتها، وأنا شخصية ثانوية فيها. وأنا بطل قصتي وأنت شخصية ثانوية فيها. وكلانا شخصيتان عابرتان في قصة المقهى الذي نجلس فيه.. والمقهى مكان عابر في قصة المدينة وهكذا.. وهكذا...

وحرك يده كما لو أنه يخلط شيئًا في الهواء.

تمتمتُ بطريقة توحي بأنني أحاول فهم ما يقول:

– قصة الكون، مممم.

لقد كنت أحاول فهمه هو لا فهم ما يقول، لكنه فاجأني بأن أمسك فمي!

– هُص!

– شو في؟

وأشار بحاجبيه إلى الأعلى:

– لا تتكلم.

كان جدِّيًا للغاية، فنظرتُ إلى حيث أشار بحاجبيه فلم أجد شيئًا. قلتُ في نفسي: «ماذا يحدث؟». وحركتُ رأسي بالسؤال.

– الحمامة!

قلتُ:

– ما بها؟

وانتبهتُ إلى حمامة حطَّتْ على الشُّرفة فوق رؤوسنا.

قال:

– انتبِه! إنها الراوي!

ثم فَرَط من الضحك.

نفضتُ يده عن فمي وابتسمت:

– اللعنة!

– هذا مثال على الابتكار في الحوار!

قالها وهو يلوك البسكويت في فمه، ثم تمتم وهو يخلع نعليه استعدادًا كي يقعد القرفصاء فوق الكرسي المقابل للكرسي الذي أقعد عليه:

– بلى؛ هذا ابتكار في الحوار.

كثيرًا ما يفاجئني عامر بسلوكيات صادمة، ولكنها سلوكيات من شأنها أن تعيش إلى الأبد، ما إن تبدأ الغرابة بالظهور في طريقة كلامه أو سلوكه حتى تبدأ الأشياء بالتشكُّل بطريقة مغايرة، وهذا يفسر الفهم الجديد للأشياء في حضوره.

– إن قررتُ الكتابة فلستُ واثقًا بما سأكتبه عنك وأنت تأكل البسكويت من صحني في كل مرة نلتقي بها، وتُقرفِص فوق كرسي اخترعه الإنسان حتى يقعد على قفاه، لا كما لو أنه في حمام عربي.

– سيكون ذلك ممتعًا بلا شك، الرجل الذي يقعد القرفصاء فوق الكراسي، ويشرع في الكلام.. فتمشي تحت قدميه الطريق.

– هل هذا اقتباس؟ أم ارتجال جئت به للتو؟

أجاب:

– كلاهما.

وارتسمت ابتسامة ضئيلة فوق شفتيه.

لم يكن لِيفوِّت لحظة دون أن يُصوِّب بها لكمة نحو منطقة مكشوفة في عقل من يستمع إليه، الكلام، هكذا كان يرى الكلام: إما ضربة قاضية وإما..كلام.

ذات مرة خلعتُ نظارتي لأنظف عدساتها، فقال لي:

– لديك شخصية أخرى خلف نظارتك الطبية، إلا أنها محكومة بالظهور من خلفها، شخصية تزول إن أزلتَ نظارتك الطبية، وتعاود الظهور في اللحظة التي ترتديها.

ثم أغمض عينيه.

قلتُ في نفسي: «ولديك بؤبؤان، سمكتان تسبحان تحت رمل حين تغمض عينيك.»

كان يصفن كثيرًا في الشبابيك، ويكثر من تعديل جلسته كلما طال الصمت وانقطع الكلام. أقول في نفسي: «في فمه كلام لم ينضج بعد، الفكرة على النار»، ثم أدرك أنها بدأت بالغليان حين يعضُّ سبابته، وأستعد.

– لديَّ نَص، هلَّا استمعت إليه؟

قلتُ:

– بالطبع، أرجوك.

ثم استلّ بدرامية ورقتين من حقيبته، وأشار بحاجبيه:

– أَقرأ؟

فأشرت إليه بيدي أنْ تَفضل بالقراءة.

«اقتحمت، عام ١٩٩٠، شاحنة بيضاء صغيرة الحجم من طراز «دايهاتسوا» بيت العائلة المكونة من أم وابنها الواقع في حي النزهة في مدينة الزرقاء، ثاني المدن الأردنية الكبرى بعد العاصمة عمان.. كانت فاطمة...»

ثم بلع ريقه وأشاح بنظره عن الأوراق!

و

صـــمـــتْ

حثثته وأنا أحاول النظر في عينيه:

– أكمِل.

– لم أكمل كتابتها بعد، ولن أستطيع، وأظن أنك الأجدر في كتابتها.

– كيف أكون الأجدر بكتابة قصة أنت كاتبها؟

قال:

– لا تكن ساذجًا! هل تظن أن هاتين الورقتين رواية؟! هذه الحبكة فقط، الكتابة هي ما بعد الورقتين.

ثم دفع بهنَّ إليَّ.

جلسنا بعدها قرابة الساعتين، يتكلم ويبكي، ثم تشع عيناه كمن وجد نفسه، ثم تخبوان، كان يتناغم مع الحكاية كما لو أنها حدثت بالفعل، ويتأثر بأحداثها كما لو أنها طازجة وتحدث للتو.

قلت له وأنا ما زلتُ أحاول الحصول على تواصل بصري بيننا:

– في جعبتك الكثير.

قال وهو ينظر إلى قدميه:

ولكنني لا أستطيع كتابته.

– أرجوك أن تحاول كتابته.

وهمَّ بمغادرة المقهى بعد أن انتعل حذاءه:

– اعتبرني co-writer يا رجل، وابدأ الكتابة من حيث انتهيت أنا! ها؛ هل أقنعتك؟

وارتدى الحقيبة ثم وضع السماعات في أذنيه.

– ماذا تسمي ما حدثتني به للتو؟

– Skeleton.

– هيكل عظمي؟ هيكل القصة العظمي؟

– هيكلي أنا، هيكلي أنا العظمي.

– وما الذي ينبغي أن أفعله بهيكلك العظمي؟

– أن تكسوه لحمًا يا رجل.. أراك.

قالها ولوَّح بيده خلف رأسه.

– سلام؟

ودعته مستخدمًا صيغة السؤال، وكنت أنتظر رد فعلٍ قد يُعد استجابة.

تسجيل..

ثمة لحظة، تقع في القلب وقوع المعدن فوق البلاط في الليل، لحظة توقظ فيك الدهشة القصوى، وتسوقك على غير هدًى إلى ما يتشكل الآن في رأسك دون خطة مسبقة.

إنها اللحظة التي تتحول فيها من موقع التلقي إلى موقع الحدث، اللحظة التي تنتقل فيها من مقعد القارئ إلى مقعد الكاتب دون أن تقوم من مكانك، إن حصل وشعرت بشيء من هذا، فاترك كل ما يشغلك وانكبَّ -بكل ما أوتيت من تركيز- فوق ورق الكتابة.

ستنتقل من كائن يرى الحياة تحدث للآخرين إلى كائن حي، من قطعة فوق لعبة لوحية إلى لاعب فعّال.

إنها لحظة الوعي، اللحظة التي تتوسع فيها حدقة العين كما لو أنها تُدخل مزيدًا من الضوء إلى النقطة العمياء جواك. لحظة تتضح فيها الشخصيات التي تذهب بسلاسة إلى قدرها الذي بدأت بكتابته.

يحدث هذا كما تحدث فرقعة بين إصبعين، إلا أنها لحظة ممتدة من الصمت الذي لا يمكن أن تقطعه صاخبات الليالي. لحظة توقفك على الطرق الخارجية منتصف الليل لتكتب فكرتك المذهلة.

إن كتبتَ يومًا قصيدة حقيقية ستفهم ما أقول. إن تمكن منك الصداع حتى شعرت كما لو أنه يقشّر جلدك، إن هربت من مناسبة عائلية إلى معمل الإنتاج (غرفتك) أو سيارتك أو حمام عمومي، وأغلقت عليك الباب.. ربما ستفهم ما أقول، ستفهم ما أقول؛ إن وجدت نفسك مضطرًّا إلى الكذب على أقرب الناس إليك لأنك مسكونٌ بكتابة الفصل الأخير.

هذه لحظة الحياة، لحظة النص الثمين، وما عداها فواصل ضرورية للحدث العظيم.

***

الفصل الثاني

*Socha

(ضعف الآخرين الخفي)

بين البيوت، خلف مركز تجاري كبير، وبالقرب من دكان يبيع حفاظات أطفال ومواد تنظيف، دُعِيت لزيارة الأزرق للمرة الأولى في منزله، لم يسبق لأحد أن جلس معه من قبل، لم يُدلِ بأي تصريح للمجلات، ولم يسبق أن انخرط في حوار صحفي قط.

ظل الحائز على جائزة الرواية العربية مرتين (دون أن يتسلّمها شخصيًّا)، وجائزة الملتقى للقصة القصيرة (تسلّمها الناشر)، وجائزة الدولة للإبداع (أرسل مدير إحدى المؤسسات الخيرية التي تُعنَى بالأيتام لتسلُّمها نيابة عنه)، متواريًا عن الأنظار حتى قرر من تلقاء نفسه أن يدعوني إلى منزله المتواري بين البيوت في منطقة الغويرية في مدينة الزرقاء.

سألته عبر الإيميل:

– لِمَ اخترتني أنا بالذات؟

أجابني:

– لأنك إن لم تفعل دعوتُ غيرك.

فاعتذرتُ عن السؤال.

تقدمتُ بين البيوت باحثًا عن دكان يبيع مواد تنظيف بعد أن استقللت حافلة من مجمع الزرقاء القديم، نزلتُ عند مفترق طرق سمّاه لي عبر الإيميل، كتب لي: «قل لجامع الأجرة عند المربّع الثاني». وهذا ما فعلته، ولكن جامع الأجرة لم يبادرني بأي ردة فعل.

قلتُ له مرة أخرى وأنا أمد يدي بأدب جم:

– لو سمحت، عند المربّع الثاني.

رمقني كما لو أنني كومة نفايات ثم قرَّب وجهه إلى وجهي:

– شايفني حمار؟!

قلت بارتباك:

– عفوًا!

– ما إنت قلت لي عالزّفت، ولا شايفني بفهمش؟

حاولتُ أن أعتذر، ولكنه راح منشغلًا بتمتمة كانت على الأغلب شتائم. لكنني، عميقًا جُوَّاي شعرتُ أنها ليست موجهة لي على وجه الخصوص، إنما جاء بي الحظ لألعب دوري كموظف استقبال لشتائم موجهة لمنظومة يكرهها.

التزمتُ الصمت حتى قال أحد ركاب الباص:

– عالمربّع الثاني معلم!

ثم انتظر حتى توقفت الحافلة ليقفز منها. ترددتُ قليلًا قبل أن أقف متسائلًا:

– المربع الثاني؟

فرد عليَّ ببرود بعد أن تحرك الباص:

– صار ورانا.

قالها وهو ينظر في عيني، كان ينتظر أي ردة فعل لا تعجبه. قلت:

– طيب.. طيب نزلني هون!

فأوقف الحافلة وهو ينظر إليَّ بتحدٍّ لم أكن طرفًا فيه من الأساس.

نزلت من الحافلة، وعدتُ إلى حيث المكان المنشود، وحين دخلتُ متجر مواد التنظيف بادرتُ بالسلام:

– السلام عليكم!

– ثاني باب، الرمادي، عاليمين.

قالها من تحت الطاولة منشغلًا بالبحث عن شيء ما، وأشار بيده.

– شكرًا

لم يجب.

قلتُ في نفسي: «لقد رتب الأزرق كل شيء». وضعتُ يدي فوق جيب الحقيبة الخارجي متفقدًا آلة التسجيل، وشرعتُ في ترتيب القميص وتفقد أناقتي بعد أن طرقتُ الباب.

بدا الباب كما لو أنه حُشِر عنوة بين حائطين، كما لو أنه مدخل لرأس سلحفاة ترقد على بطنها. فكرتُ بذلك وأنا أنتظر مَن يفتح لي الباب.

– أهلًا وسهلًا.

قالها وهو يندفع نحوي، فمددتُ يدي بالسلام، لكنه وبأقل من جزء من الثانية كان قد عاد بجسده إلى الوراء باحثًا عن شيء ليُجلِسني عليه.

– هذه! هل تناسبك؟

ودفع إليَّ بوسادة لها شكلٌ هندسي غريب، حينها لاحظتُ علامة جرح في وجهه قرب عينه اليمنى، وتمتد لتدخل في شعر لحيته ثم تغيب.

هززتُ رأسي:

– طبعًا طبعًا.

وأخذت الوسادة منه باليد التي مددتها للسلام.

ما كنتُ لأعارض الجلوس على وسادة أيًّا كان شكلها.

– آسف لم أكن مستعدًا للقائك. (يفرك يديه) أهلًا وسهلًا.

لم يبدُ مستعدًّا للقاء أحد في الحقيقة، كأنني أزوره على غير ميعاد، حتى حين طرقت الباب عدة مرات خرج برأسه بحذر وتردد:

– مين؟

أجبته:

– أنا.

ولم يعطِني فرصة للتعريف بنفسي. قال باستدراك:

– تفضل، أهلًا.. أهلًا وسهلًا.

ودخل إلى البيت دون أن يفتح الباب؛ ما اضطرني إلى دفعه بنفسي.

نقّلتُ بصري بينه وبين الأرض وأنا أحمل الوسادة. وقلت:

– لا عليك.

كان رجلًا في مثل سني، في آخر الثلاثين، وله وجه شَعورٌ بحيث يُخيَّل إليك أن عينيه عينا كائن آخر يختبئ داخل وجهه ويتحكُّم فيه.

تساءلتُ وأنا على هيئة نصف ركوع:

– هل أقعد هنا؟

– أجل، نعم، إن أحببتَ ذلك.

وقلّب نظره في المكان مترددًا فيما لو كان لديه مكان أفضل للجلوس.

قعدنا في منتصف غرفة فارغة إلا من كرسي وحيد، وزاوية مكتظة معتمة فيها معدات تصوير. كانت أشعة الشمس تدخل صفراء متقطعة من بين شفرات مروحة شفط معلقة في المطبخ محدثة تأثيرًا يشبه إلى حدٍّ كبير الأفلام السينمائية القديمة.

سألته بصيغة خبريّة:

– أنت هو الأزرق إذن!

– أهلًا بك.

كان يعطيني جانبه الأيسر في أثناء الكلام، كما لو كان طفلًا مُذنِبًا يتوقع صفعة.

– أهلًا.

وطال الصمتُ الذي قطعه مواء قطٍّ شبِق، بدا كهزيم ريح باردة.

تذكرتُ رسالة الإيميل، حين قرأتها أحسستُ بتمكن وقوة صاحبها، شعرتُ أنه يهددني، ولكنني لا أرى في هذه الأثناء إلا رجلًا ضعيفًا يضمّ قدميه إلى صدره وينحني فوقهما مثل قنفذ بلا شوك.

قلتُ أحاول فتح باب للكلام:

– شكرًا على الدعوة.

سألني وهو ينظر من تحت شعره الكثيف إلى جيب حقيبتي:

– هذه آلة تسجيل صوتي؟

أجبته بصيغة سؤال:

– نعم؟

ثم علا صوت القطّ مرة أخرى.

– سأحتاج إلى وقت حتى أعتادها.

قلتُ:

– هذه القطط لا تمل من الاقتتال.

فهز رأسه بالموافقة.

سألني:

– هل.. هل تشرب شيئًا؟

– ماذا لديك؟ قهوة؟

– قهوة! بالطبع، لديَّ قهوة.

لكنه ظل قاعدًا في مكانه.

بادرته بالسؤال:

– أقوم أعملها؟

– لا، لا تتعب نفسك، سأحضر لك المواد.

لم أفهم! المواد؟!

وغاب في إحدى الغرف ثم عاد بمشعل غاز وكيس قهوة، ثم غاب ثانية وعاد بماء وبكرج قهوة وكيس سكر ووضعهم أمامي.

– تفضل أرجوك.

فكرتُ في نفسي: «لم يكن هذا متوقعًا!»، إلا أنني باشرتُ بإعداد القهوة لكلينا.

– كيف تشربها؟

– ثلاث معالق سكر.

قالها وهو يفرك يديه وأصابع قدميه كما لو أنهما وسط حوار محتدم. ثم تذكر الملعقة فراح ليحضرها، ثم كررها وغاب مرة أخرى وعاد بفنجانين.

صمت مرة أخرى، ولكن طال هذه المرة ولم يقطعه شيء.

سألته:

– منذ متى وأنت تعيش في هذا الحي؟

قال وهو يراقبني وأنا أحرك الماء فوق شعلة الغاز:

– منذ زمن بعيد.

سألني بطريقة متقطعة:

– هل.. وجدتَ.. صعوبةً.. في الوصول إلى هنا؟

– لا، لم أجد صعوبة بالوصول، يبدو أنك رتبت كل شيء.

– لم.. لم أرتب شيئًا.

وحضن ساقيه.

صنعتُ القهوة، ثم صببتها في الفنجانين وقدمتُ له أحدهما. كان يتفحّصني، وأنا أتفحصه.

– أتشربها حلوة مثلي؟

– أحيانًا، حين أجامل أشخاصًا مهمين.

– شكرًا، شكرًا.

الـ «شكرًا» الثانية كانت أقرب إلى الهمس.

قلتُ.. هذه المرة ساخرًا:

– لعل أفضل ما قمتَ به إلى الآن أنك لم تُظهِر شخصيتك الحقيقية لأحد.

قال بسرعة خاطفة:

– ربما.

واحتدم الجدال أكثر بين أصابع يديه، واتسعت حدقتيه:

– لديَّ صعوبة في التواصل مع الناس.

– مفهوم.

وهززتُ رأسي.

– لمَ اخترتني أنا بالذات؟

– لأنك إن لم تفعل دعوتُ غيرك.

قالها بحزم وقوة، دون فواصل أو ارتباك.

بلعتُ ريقي: «ثمة شيء غير مفهوم هنا»، قلتُ في نفسي، وشعرتُ كما لو أن سائلًا باردًا انسكب في منطقة مخصصة له خلف عيني.

صمتْ

– نبدأ؟

وضرب على فخذيه واستقام واقفًا.

قلتُ:

– بالطبع!

ووضعتُ فنجان القهوة من يدي مدفوعًا بالفضول.

– هل تحب أن تسألني؟

خفّتْ حدة التشابك بين أصابع يديه.

أكدتُ رغبتي مرة أخرى وهممتُ بالنهوض:

– بالطبع.

– خليك!

وأشار إليَّ بيده أن ابقَ قاعدًا لو أردت.

– هل أستطيع استخدام آلة التسجيل؟

وجدتُ صعوبة في التحدث إليه من هذه الوضعية.

– هل تسمح لي بإعطاء الأوامر؟

كانت وضعية عملاق يطلب الإذن من نملة.

سألته:

– أوامر بماذا؟

– يعني إن رغبتُ في تسجيل شيء ما، سأقول لك: سجّل، فتضغط على آلة التسجيل، اتفقنا؟

كانت هذه المرة الأولى التي يتكلم بها وهو ينظر في عيني.

قلتُ:

– اتفقنا.

في حين راح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا.

لاحظتُ ثقبًا صغيرًا في كنزة الصوف التي يلبسها، كانت من النوع الذي تصنعه مصانع التريكو المحلية بخطوط عرضية وألوان تناسب بناطيل الجينز، أحمر ورمادي وكحلي؛ ما جعلها أكثر شعبية من غيرها، أخذتُ شهيقًا طويلًا محاولًا الحفاظ على تماسكي أمامه، لقد فاجأني تحوله، في اللحظة التي اعتقدتُ فيها أنني فهمتُ كل شيء وبدأتُ في السخرية منه.. انقلب عليَّ. بدا كل ما حدث بيننا في الدقائق الأولى من لقائنا مثل إحماء لاعب محترف قبل مباراة حقيقية سيبذل فيها أفضل ما لديه.

لم أكن خائفًا منه بالقدر الذي كنتُ أخاف فيه من ردة فعله غير المتوقعة؛ الخوف من المجهول.

تذكرتُ نصًّا قرأته لأديب يتحدث فيه عن الأسماء، وكيف أنها تزيل الوحشة عن الأشياء، والوحشة هنا من الوَحْش على حد تعبيره، الوحش هو كائن غير معروف بالضرورة، وما إن تبدأ بالتعرف إليه حتى تزول عنه الوحشة شيئًا فشيئًا.

كنت أسعى لإزالة الوحشة عن هذا الرجل شيئًا فشيئًا حتى أجد له مسمًى جديدًا غير الذي تعارف عليه الناس: الأزرق. اسم مستعار لا يفيد إلا لإضفاء غموضٍ أكثر على شخصية غامضة.

سألته محاولًا بدأ حوار صحفي من الحوارات التي اعتدتُ كتابتها:

– حسنًا أيها الأزرق، ما الكتابة؟

قال:

– ليست واضحة وضوحًا كافيًا.

واستمر بالمشي جيئةً وذهابًا. ظننتُ أنه يفكر بقول المزيد فانتظرته.

قلتُ حاثًّا إياه:

– هل هذا كل شيء؟ تستطيع أن تستطرد إن أردت.

قال:

– نعم.. لا، هذا كل شيء.

واستمر يذرع الغرفة جيئة وذهابًا.

«يبدو أنني سأجد صعوبة في الحديث معه»، قلتُ في نفسي.

– طيب، من أين تجيء بالشخصيات في رواياتك؟

– ما الذي تعنيه بمن أين تجيء بالشخصيات؟

– يعني تخترعها، تبنيها على شخصيات حقيقية؟

– لديَّ ٣ شخصيات أعمل عليها الآن، كلها، مثل الشخصيات التي سبقتها، شخصيات حقيقية بالكامل.

أعدتُ آخر كلامه بصيغة سؤال:

– حقيقية بالكامل؟

– هي شخصيات حقيقية، أسرقها من أصحابها، بالكامل.

لم أفهم ما عَناه بـ «أسرقها من أصحابها»، فطلبت أن يوضح أكثر.

قال:

– تعال أُريك.

وسحبني من يدي إلى يمين الزاوية المكتظة بمعدات التصوير.

قال:

– هذا قفص هامستر.

ورفع الغطاء مثلما تفعل الشركات العالمية عندما ترفع الغطاء عن منتج جديد.

كان قفص هامستر حقيقي، إلا أنه لم يحوِ حيوان هامستر، بل شخصيات من «الليجو».

أشار بيده إلى أحد شخصيات «الليجو»:

– هذا هو أحمد، سأخبرك بلقبه لاحقًا.

– كان معروفًا بسرعته وشجاعته، ولكنه كان يستخدم صفاته في الشر، بإرادته الحرّة اعتدى جنسيًّا على طفل في التاسعة من عمره، وهذا هو الطفل الذي اعتدى عليه.

وأشار إلى شخصية أخرى من «الليجو» في زاوية القفص.

سألته وقد أعجبتني طريقة تجسيد الشخصيات، وأثّر فيَّ أن يُعتدَى على طفل في مثل هذا العمر:

– تعني أنك تتخيل القصة في قفص الهامستر هذا قبل أن تكتبها؟

قال:

– بل أمثّلها.

كان القفص مقسمًا بحيث يستخدم الورق المقوى لفصل الشخصيات في غرف مستقلة، أحد هذه الشخصيات كان سائق مركبة مركونة خارج القفص فوق الطاولة، وضعتُ يدي على رأسه وحركته يمنة ويسرة:

– وهذا ينتظر دوره في التمثيل؟

قال:

– هذه شخصية انتهى دورها منذ زمن، في هذه المرحلة أمثِّل خط الزمن، كيف بدأت القصة وكيف تنتهي، أما بالنسبة إلى الشخصية؛ أعني صفاتها وكيف تفكر وغيرها من السمات فإنني أحاول تقمصها.

– تتقمصها! كيف؟

فخطى نحو الزاوية المكتظة بمعدات التصوير، وقال:

– هنا.

وانفرجتْ شفتاه عن ابتسامة صغيرة.

***

هنالك، في الزاوية المكتظة بمعدات التصوير، كان قد أعدّ كادر التصوير خاصته. سحب الكرسي الوحيد في الغرفة ووضعه أمام خلفية سوداء بالكامل، جهّز الإضاءة وعاين مكان الكاميرا. كان يعض شفته السفلى، ويُحضِّر موقع التصوير بشغف كبير.

قال وعيناه تلمعان:

– لحظات ويكون كل شيء جاهزًا.

وكنتُ أتابع بانتباه واهتمام كبيرين.

قال:

– الآن، ولنفرض جدلًا أنني مدرِّس لمادة العلوم.

ولبس نظارات طبية ووشاحًا ربيعيًّا خفيفًا لا يناسب برد شهر شباط فوق كنزة الصوف.

– هل أنت مستعد؟

هززتُ رأسي بأنْ نعم. فضغط على زر التسجيل وأسرع بالقعود على الكرسي في كادر التصوير.

وكما لو أنه سمع كلمة أكشن؛ فرك يديه ثم مسح بهما وجهه وأخذ نفسًا عميقًا أتبعه بزفير طويل، وفي اللحظة التي رفع فيها عينيه ليواجه الكاميرا تحول إلى شخص جديد!

بدتْ المسافة بين عينيه أكبر قليلًا، ومال حاجباه إلى الأسفل في حين سحل ذقنه إلى الأمام قليلًا وبدأ في الكلام...

لم أستطع إخفاء اندهاشي وإعجابي، لديه قدرة هائلة على التمثيل، همست لنفسي: «هذا ممثل مذهل!»، وتابعتُ التركيز على التفاصيل. لقد تغيرتْ مخارج الحروف، وطريقة الكلام، والانفعالات، ثمة شيء قد تغير في وجهه لا أعرف طريقة لوصفه.

صحتُ في وجهه بعد أن انتهى من التصوير واقترب من الكاميرا ليتفقدها وفي فمه ابتسامة عريضة لم يُخفِها:

– أووووف! ما الذي حصل للتو؟

لم يُجب، وبقي منشغلًا بالكاميرا.

عدتُ إلى الوراء خطوتين، ثم بحثتُ عن الوسادة التي كنت أقعد عليها.

– هذا مدهش أيها الأزرق! يا إلهي!

بقي منشغلًا بالكاميرا، وبقيتُ منشغلًا بما رأيت.

كنت قد كتبتُ في عملي الممتد لخمسة عشر عامًا ضمن واحدة من أكبر الصحف مجموعة كبيرة من المقالات النقدية التي تُعنَى بالأدب، وقابلتُ الكثير من الأدباء، وتعرفتُ إلى طقوسهم وعاداتهم وغرائبهم، ولكن هذا.. يا إلهي! تنهّدتُ قاعدًا على الوسادة في حين أضع رأسي بين فخذيّ.

***

وضع الكاميرا في الجيب المخصص لها ثم نظر نحوي.

– هذه المرة الأولى التي أجسّد بها شخصية أمام أحد غير الكاميرا! أعني، المرة الأولى منذ زمن بعيد!

– ما حدث للتو... أووه! (وأمسكتُ رأسي)، أنت موهوب يا رجل!

– شكرًا.

– أتفعل هذا مع كل شخصياتك؟

– نعم، ربما يفسر هذا تأثُّر الناس بها، ومقدار محبتهم أو كرههم لها.

– ولكن بعيدًا عن الكتابة، أنت ممثل عجيب!

– أراقب الشخصيات كثيرًا، وأتدرب يوميًّا أمام الكاميرا.

– ما الذي تعنيه بأراقب الشخصيات؟

سحب الكرسي من كادر التصوير ثم وضعه بالمقلوب قبالتي، وقعد متكئًا بمرفقيه على مسند الظهر.

– أراقبها، كيف تأكل وتشرب وتتكلم، كيف تضحك وتبكي، كيف تبتسم وتغضب وتتوتر، كيف تعبِّر عن جوعها.. عن غريزتها عن... أراقبها في كل الحالات التي أحتاج إليها في الكتابة.

– لكنك تقول أراقبها، هذا يعني أنك تراقب شخصيات حقيقية، في الواقع تعني؟

– نعم! هذا ما عنيته بأسرقها من أصحابها.. ولديَّ الآن ثلاث شخصيات أعمل عليها، أراقبها منذ الصباح وحتى المساء. تستطيع أن تعدَّ هذا واحدًا من أسراري.

– كيف تقوم بذلك؟ تتبعها إلى أماكن العمل؟ في المناسبات؟

– ها قد بدأتَ تتخيل طريقة لفعل ذلك. نعم، أقوم بكل ما من شأنه أن يساعدني في تقمص الشخصية، حتى لو اقتضى الأمر أن أتبعها إلى أماكن عملها وإلى المناسبات. ولكن بعض الانفعالات تحتاج مني أكثر من ذلك، فألجأ إلى التصوير.

– تُصوِّر الشخصيات؟ دون أخذ إذنها؟

– أستخدم الكاميرا لتسجيل انفعال ما، ثم أتدرب عليه.

– أنت مجنون.

– هههه، هذه طريقتي.

امتزجت ضحكته التي شهدتها للمرة الأولى مع صوت شجار القطط الذي اعتدتُه.

– ربما في زيارة أخرى غدًا، سأطلعك على المزيد.

«أووه، كم الساعة الآن؟!»، سألت نفسي وسحبت هاتفي المحمول من جيبي.

كانت الشمس قد غابت للتو، ولم أدرك ذلك لولا الطريقة التي استخدمها للتخلص منّي. يقول: «سأطلعك على المزيد غدًا»، ويقصد أن يقول: غادر، لقد أطلتَ الزيارة.

– بالطبع، سأجيء في الغد.. إن كان هذا يناسبك.

– تعال، ولا تنتظر عند الباب في الغد، اطرق الباب مرتين ثم ادخل، سيكون هذا كافيًا، وسأكون بانتظارك.

– حسنًا.

أردتُ أن أودعه، ولكنه غاب في إحدى الغرف الداخلية دون التلفُّظ بما من شأنه أن يُعدَّ وداعًا، أو يوصلني إلى الباب كما يفعل عادةً صاحب البيت.

حملتُ حقيبتي، ووضعت بطريقة آلية يدي في جيبها الخارجي لأتأكد من وجود آلة التسجيل، وقد انتبهت حين تفقدتها إلى أن زر التسجيل ينبض باللون الأحمر ثم يختفي.

«اللعنة!».. صرختُ بصوت منخفض جوَّاي فاتحًا عينيَّ عن آخرهما. هل ضغطتُ زر التسجيل عن طريق الخطأ؟ منذ متى؟ لا علم لي، ولكنني سأعلم ذلك حين أعود إلى البيت.

***

الفصل الثالث

Zenosyne

(التسارع المخيف للزمن)

فوق أريكة زرقاء داكنة، مددتُ قدمي أمام التلفاز كما أفعل بعد أيام العمل الطويلة؛ أجلس هناك بعد حمام ساخن وأبدأ في تقليب قنواته دون تركيز حقيقي في شيء، لا عائلة أقلق بشأنها، ولا ضيوف أحدِّثهم أو أشاركهم ألعابي. كنت أحظى ببعض الرفقة في بعض الليالي، ولكنني لم أرغب برؤية أحدٍ في تلك الليلة، كنتُ منشغلًا بما حدث معي في زيارة الأزرق، أتنفّس ببطء وانسجام في حين تتدلى قدمي اليمنى في الفراغ بجانب الصوفا، ظهري يعرق قليلًا والهواء البارد يتسرب من حيث لا أعرف إلى تحت إبطيّ:

«يا له من شخصية مذهلة!» قلتُ في نفسي، ثم وضعتُ جهاز التحكم بالتلفاز من يدي وشرعتُ في إيصال جهاز التسجيل باللابتوب، لحظات، وضغطتُ على زر التشغيل، فخرج صوته ليملأ المكان: «هل تشرب شيئًا؟... قهوة! بالطبع، لديَّ قهوة... لا، لا تتعب نفسك، سأحضر لك المواد...».

«يا إلهي! لقد سجّلتُ تقريبًا كل شيء! متى حدث كل هذا؟ لعلي ضغطتُ زر التسجيل عن طريق الخطأ.»

كررتُ قول ذلك في نفسي، وأحسست بسرور بالغ لحدوث خطأ كهذا.

أغمضتُ عيني ورحتُ أستمع إلى التسجيل كأنني أراه.

دقائق ثم غفوتُ وفي يدي آلة التسجيل، واللابتوب في حضني، والصوت يدخلني بسلاسة دخول الهواء في لحظة الشهيق.

***

في الصباح، كانت الشمس تصنع مثلثًا صغيرًا من الضوء على حافة الشباك، حينها أدركتُ أنني قد تأخرت! فزتُ من فراشي وشرعتُ في ارتداء ملابسي وفرشاة الأسنان تتدلى من فمي. كنت مسرعًا إسراع مَن كان له غاية يسعى لإدراكها، ثم انتبهت أن لديَّ سببًا أصحو من أجله اليوم!

تذكرتُ كلمة يابانية تصف شعورًا كهذا: «إيكيغاي»؛ وتعني أن يكون لك سبب تصحو من أجله كل يوم. لقد وجدتُ سببي اليوم، وها أنذا أصحو نشيطًا على غير عادتي، وأبدأ يومي بمقدارٍ لم أعتده من الاندفاع.

لا شك أن زيارة الأزرق قد خلقت في داخلي طاقةً شحنت عزيمتي. هززت رأسي موافقًا نفسي ثم أغلقت شاشة اللابتوب ووضعته في الحقيبة، تفقدتُ آلة التسجيل كما أفعل دائمًا، واندفعتُ خارج البيت اندفاع مراهق ذاهب في موعد مع فتاة للمرة الأولى.

تتغير الدنيا في عينيك حين تندفع لتحيا من أجل شيء ما. فكرتُ وأنا أجلس ريثما تمتلئ الحافلة في مجمع الباصات القديم، ثمة أغنية تصدح من مكان قريب، لا بد أنها صدحت مرارًا، ولكنني لم أعِرها انتباهي، وضحكات ما كنت لأسمعها لو لم أكن في مزاج جيد، رائحة القهوة والسجائر في كل مكان، تمنيت لو أنني أدخن من أجل لحظة كالتي أعيشها الآن، إنها لحظة أتمنى لو تستمر. لحظة غرقت بها في الحياة، وأحسست أنني كائن دنيوي كامل بلا منغصات أو أسئلة وجودية. كنت أفكر بالطريقة

التي سيبهرني بها الأزرق حين أزوره للمرة الثانية اليوم، وعن المادة التي سأتفرد بكتابتها عن هذا الكائن المدهش. سيكون لهذه المقابلة وزنها في عالم الأدب. قلت الجملة الأخيرة بصوت عالٍ على ما يبدو؛ ما جعل الراكب إلى جانبي ينظر إليَّ باستغراب، لم أشاهد نظرته التي جاءتني من زاوية معتمة، ولكنني شعرت بها فوق جلدي.

كان يومًا دافئًا من أيام شهر شباط. سأنزع معطفي حين أنزل من الباص. قررتُ ذلك وأنا أنظر من الشباك إلى لوحة إعلانات ينعكس عنها ضوء الصباح؛ ما جعلني أضيِّق عينيَّ بالطريقة ذاتها التي ضيقتهما فيها وأنا أقرأ قصاصة الورق على باب بيت الأزرق. أردتُ التأكد مما كُتب في الورقة: «نأسف لهذا الخلل، عاود المجيء غدًا، في تمام الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، سأكون في انتظارك».

أحبطتني الملاحظة، كنت متحمسًا للقاء اليوم، لقد خصصت اليوم كله لهذه الزيارة. والآن لا فكرة لديَّ عما ينبغي أن أقوم به، طرقتُ الباب مرتين وانتظرتُ قليلًا علَّه يفتح لي، لم أُرِد التصديق بأنني لن أقابله اليوم، مشيتُ خطوة إلى اليمين ثم عدتُ ومشيت خطوتين إلى اليسار وأنا أفرك ذقني.. ولم يحدث شيء، نظرتُ إلى الباب، ثم طرقته مرة أخرى ولم يحدث شيء، لا شيء إلا صوت قطٍّ يتوعد آخرَ من بين البيوت، ثم صمتٌ غادرتُ في إثره المكان دون أن ألوي على شيء.

حششتُ الخطى دون نية مسبقة، إلى أين؟ لا أعرف. شعرتُ بقوة تدفعني إلى اختيار شارع دون آخر عند أي مفترق، كما لو أنني أتبع القدر في تجلٍّ واضح غير الذي اعتدته، لا تردد، انسقتُ خلف هذا الهاجس الذي تلبَّسني وانصعتُ له حتى وجدتُ نفسي أطلب قهوتي من مقهًى حديث في شارع قريب.

في مدخل المقهى بضع درجات، صعدتها وعيني على الباب الذي ما إن فتحتُه حتى قابلني لوح كتب عليه بالإنجليزية: خدمة ذاتية، رفعتُ يدي بالسلام على الموظف هناك، ثم صعدتُ الدرج المنحني إلى الطابق الثاني، وأنا أنتظر قهوتي، أخرجتُ اللابتوب من الحقيبة وأوصلته بقابس الكهرباء، خلعت معطفي، ثم قلتُ شكرًا لموظف المقهى الذي تبسَّم وهو يضع فنجان القهوة أمامي، وبدأتُ جولة من الكتابة انتهت بعد عدة ساعات مع شعوري بحاجة ماسة إلى استخدام دورة المياه. رفعتُ عيني لأرى الشاب الذي أعد فنجان قهوتي فاندفعتُ باتجاهه.

– أين دورة المياه؟

– من هناك.

وأشار بيده، فاندفعتُ إلى الـ «هناك».

لطالما حدث ذلك لي، أنغمس بالقيام بشيء ما، فأنسى حاجاتي الأساسية.

– يبدو أنني جائع.

وتحسستُ بطني، إلا أنني عدتُ لمقعدي دون أن أطلب شيئًا لآكله. شكرتُ الشاب في طريق عودتي، وقعدتُ أراجع ما كتبته حتى الآن، ثم انغمستُ بجولة ثانية انتهت مع حلول الظلام.

جلتُ المقهى بعينيَّ فلم أجد غيري يجلس هناك.

رفعتُ يدي لأطلب الحساب، فجاء الشاب مع قصاصة ورق في يده، سألته:

– هل هذا كل شيء؟

فهزّ رأسه أن نعم، فأخرجتُ ضِعف المبلغ المطلوب ودفعتُ الحساب.

ثمة ما يحدث لي حين أكون كريمًا مع الآخرين، لا أدفع قرشًا إلا ويعود لي، شيء من بَرَكة الصدقة؟ ربما. كارما؟ قد يكون. وبغض النظر عن التسمية.. إلا أنه يحدث وأنا شاهد عليه. فكرتُ وأنا أهمُّ بالخروج من المقهى عائدًا للبيت. وما إن وصلتُ حتى خلعتُ ملابسي وأخذتُ حمامًا ساخنًا ثم تمددتُ فوق الأريكة الزرقاء، وأوصلتُ جهاز التسجيل باللابتوب ووضعته في حضني، ثم ضغطتُ زر التشغيل.

حين صحوتُ صبيحة اليوم التالي، كان مثلث الضوء الذي صنعَته أشعة الشمس أكبر قليلًا مما كان عليه في اليوم الفائت.

«هل غفوتُ؟» سألتُ نفسي، ولكنني لم أجد الوقت الكافي لأتفقد ملف الكتابة في اللابتوب. كان عليَّ أن ألبس ملابسي وأنطلق لمقابلة الأزرق في تمام الحادية عشرة.

في الطريق إلى بيت الأزرق، حاولتُ أن أتذكر ما كتبته في المقهى، ولكنني لم أتمكن من تذكر أيِّ شيء، ثم تذكرتُ أنني أوصلتُ اللابتوب لأسمع تسجيلًا قبل أن أنام فوق الأريكة الزرقاء، لكنني لم أتذكر فحواه أيضًا، مررت أصابعي في شعري، ثم تحسستُ اللابتوب في الحقيبة مضمرًا نيتي تفقده حين أجد وقتًا لذلك، ثم نزلتُ من الباص عند متجر مواد التنظيف على المربَّع الثاني.

لم ألبس معطفي هذه المرة؛ فشعرتُ بقرصة برد، الشمس تُدفئ ما يواجهها، أما الأماكن والأشياء التي لا تطالها الأشعة تبقى باردة حتى نهاية الشتاء، اتجهتُ مباشرة إلى باب البيت وقرعته مرتين، فشعرتُ ببرودة معدنه في باطن يدي، ثم دخلتُ ببطء وأنا أتفقد المكان كما لو أنني آخذ حذري من شيء ما.

ناديتُ بنبرة جهورية طامعًا باستجابة:

– مرحبًا.

قال بصوت عالٍ من إحدى الغرف الجُوانية التي تبيَّن أنها المطبخ:

– مِن هُنا.

كان الأزرق منهمكًا بإعداد القهوة، والشمس تدخل من بين شفرات مروحة الشفط محدثة تأثير فلم قديم، إنما على أرضية المطبخ هذه المرة.

قال في حماسة واندفاع:

– لحظات وتجهز قهوتنا.

قلت وأنا أتفقد مطبخه بعينيَّ:

– عظيم.

– هل أحضرتَ آلة التسجيل معك؟

قالها وهو يقلّب رغوة القهوة فوق النار استعدادًا لصبِّها.

تحسستُ آلة التسجيل بيدي وأنا أقول:

– نعم.

كنتُ أبحث عن زر التشغيل حتى أتمكن من إطفائها قبل أن ينتبه، وقد تمكنتُ من ذلك في أثناء انشغاله بصب القهوة في الفناجين.

– سنسجل اليوم، لقد أعددتُ شيئًا لأقوله، نفسيًا؛ أنا مستعد.

أردتُ أن أجاري اندفاعه فقلتُ بدوري:

– بالطبع، سنسجل اليوم، وأنا مستعد.

لم أكد أنتهي من كلامي حتى أخذ فنجان قهوته وذهب إلى الصالون.

قال وهو يخرج من الباب:

– أحضر فنجانك واتبعني!

فحملتُ فنجاني وتبعته، وما إن انتهى من تجهيز المكان حتى سحب الكرسي وجلس في كادر التصوير، وقال:

– تستطيع أن تضغط زر التسجيل الآن.

ثم أخذ نفسًا عميقًا أتبعه بزفير مَن يحاول التركيز.. ثم لبس نظّارة طبية وفتح عينيه:

«ما يهمني في الحقيقة هو الموت.. الموت في الوجوه الحية..إن للإنسان قدرةً خاصةً وفريدة على الموت وهو يمارسُ حياته طبيعيًّا، أن يموتَ دون أن يكون على درايةٍ كاملة بذلك، لقد صَادَفتُ الكثيرين ممن ماتوا في هذا العالم الغارقِ بالكرهِ والتّشفّي، ماتوا بلا حروب، بلا كوارث، دون أن تتعب ملائكة الموت، ماتوا، لأن الآخرين مستمرّون بقتلهم في مواقف لا حصر لها ولا إحصاء.

ماتوا، لأن الفقر يحولُ بينهم وبين الوصول إلى حبيباتهم، ماتوا لأن عليهم أن يدفعوا رشوةً للموافقة على معاملة حكوميّة، ماتوا من الذُّل أمام سطوة الجلاد، ماتوا لأن نار الكذب تذيب الأبيض في قلوبهم وتترك مكانه فحمها الخاص. ماتوا في اللحظة التي ضحكوا فيها على وجع الآخرين، عندما جَبُنُوا عن إيقاف صفعة تتجه إلى وجهٍ بريء، عندما لم يروا في شمسهم ظلمة الزنازين، في اللحظة التي صار فيها الظلم عدلًا إن عمّ وساد دون تمييز، ماتوا لأن كلَّ ما تعلموه عن الابتسام وحسن المعاملة يُسرق أوّل الوعي، كما تُسرق الراحة في أوجه العبيد.

نحن نموت كل يوم، تموت الفضائل كل يوم، ويموت معها كل ما يستحق الحياة.

لكن نورًا ينسلُّ من باب موارب في الروح، يدفعني إلى أن أكتبَ عن هذا كلِّه، يدفعني، إلى أن أصرخ في وجهي أمام المرآة: أنا لا أموت، أن أهتفَ في العالمين بأننا لا نموت.

لا نموت!

هذه صرختي الأخيرة قبل أن ينغلق الباب على الظلمة في داخلي، وقبل أن تذوب آخر نقطة بيضاء في قلبي، أريد للظلم.. أريد للظلم في هذا العالم أن ينتهي.

أريد لصرختي أن تصل إلى حدّها في المدى، ربما، ربما قبل أن ينخمدَ في شمعتي الوميض، قبل أن يموت الخير في قلوبنا دفعةً واحدةً، وإلى الأبد..

سأسمع الصدى..

سأسمع الصدى..»

لم يطلب أن أوقف التسجيل، ولكنه أشار بيده: هذا يكفي، وبيده الأخرى كان يحاول إخفاء عينيه، لكنه لم يستطع السيطرة على الحالة فانفجر بالبكاء.

قلتُ مستدركًا:

– هدئ من روعك أيها الأزرق.

ووضعتُ آلة التسجيل من يدي، واقتربتُ منه لأحضنه، إلا أنه ظل يشير بيده كما لو أنه يتفادى اقترابًا محتملًا، ثم نزل عن الكرسي وتكوّر في زاوية الكادر وشرع في النحيب.

لم يكن باستطاعتي سوى أن أقعد بقربه وأنتظر، وهذا ما فعلتُه؛ ظللتُ أنتظر حتى توقف بكاؤه، ثم قال من خلف يده التي كان يخفي وجهه وراءها:

– هذا كل شيء اليوم، تستطيع أن تغادر.

هممتُ لأقول شيئًا مثل: أريد أن أبقى معك. ولكنني تراجعت، أخذتُ آلة التسجيل، ووضعتها في الحقيبة، وألقيت عليه نظرة أخيرة وهو يحضن نفسه في زاوية كادر التصوير. ثم لوَّحتُ مودعًا بيد شبه مفتوحة موقنًا أنه لن يراها، ثم غادرتُ البيت.

***

فركتُ يديَّ ونفختُ فيهما قبل أن أقف حائرًا عند متجر مواد التنظيف، ثم انتبهتُ إلى عدم حاجتي إلى فرك يديَّ والنفخ فيهما! «الجو جيّد!» قلتُ لنفسي وأنا أنظر في قرص الشمس، ثم تلفّتُّ يمنة ويسرة: «ماذا أفعل الآن؟» تساءلتُ وأنا أحكُّ شعري. ثم قررتُ الذهاب إلى المقهى الذي جلستُ به أمس.

«لقد كتبتُ بشهية كبيرة هناك»، همستُ لنفسي ثم فركتُ أنفي وانسقتُ للطريق.

تملكني التفكير به طيلة الطريق، لقد انهار مثل طود عظيم أمام عينيَّ، انهار كلمة كلمة حتى انتهى النص الذي حضّره للتسجيل، لا أعتقد أنه ارتجله، على الأقل لم يرتجل فكرته، فقد بدتْ عليه معالم العارف بالوجهة النهائية للنص، ربما ارتجله! مَن يدري؟ كنتُ متحمسًا للوصول إلى المقهى، من أجل الاستماع إلى التسجيل مرة أخرى بالدرجة الأولى، ثم من أجل الكتابة.

حين وصلت، رفعتُ يدي بالتحية للشاب الذي يعمل هناك، فرفع يدًا شبه مفتوحة بالتحية، ثم توجهتُ للجلوس في المكان نفسه الذي جلستُ به البارحة. كان الشاب يشبهني حين كنتُ في العشرين

من عمري، ليس شبهًا حقيقيًّا بقدر ما كان شبهًا من الداخل، ترى الرجل فتقول لنفسك: هذا رجل شفاف، أستطيع أن أرى من خلاله، ولكنك لا تصرح له بذلك.

«المكان فارغ مرة أخرى»، تمتمتُ وأنا أجول بناظري في المكان.

أوصلتُ اللابتوب بقابس الكهرباء، ثم رفعتُ نظري لأجد الشاب يضع فنجان القهوة على الطاولة دون أن أطلب منه ذلك، سألته:

- كيف سكَّرها؟

- كما تحبه.

ولم يعقّب، ولكنه ظل واقفًا وفي وجهه ابتسامة مخبَّأة حتى أجرِّبها.

هززتُ رأسي:

- تمام.

ثم شربتُ منها فأدهشني طعمها، وابتسمتُ شاكرًا له، فعاد لمكانه في المطبخ، وقد شمَّرت شفتاه عن أسنان بيضاء تتوسط ابتسامة عريضة.

تذكرتُ قهوة الأزرق التي لم أشربها، ثم تذكرت النَّص الذي نويتُ التأكد من وجوده في الباص، فوجدته بالفعل.

قلتُ: «لم أكن أحلم إذن»، ثم نسيت نيَّتي بالاستماع إلى التسجيل، طقطقتُ أصابعي، وغرقتُ في الكتابة حتى غابت الشمس.

لا أتذكر شيئًا خلال عملية الكتابة، أغرق عن آخري في أثنائها فلا أحس بشيء، وحين أرفع رأسي من شاشة اللابتوب يبدو العالم بالنسبة إليَّ كما لو أنني استيقظتُ للتو من نوم عميق، أو كما لو أن العالم استيقظ من سبات عميق، أحتاج إلى دقائق حتى أتبين أين أنا، وما الذي ينبغي عليَّ القيام به، وعادة يكون هذا الشيء هو الذهاب إلى دورة المياه، وهناك أستعيد وعيي، وأقرر ما الخطوة القادمة، وهي على الأغلب أن آكل شيئًا، ربما هذا هو سبب نحافتي المفرطة، ولكنني أشعر دائمًا بالرضا عن نفسي بعد أن ينتهي كل شيء، ولا أراجع النص، أكتفي بالحالة التي جاءت به، وهي حالة أعظم من حالة الوعي التي سأحاكمه بها بعد أن أستعيد تركيزي. أقول لنفسي: «هذا ما يجعل نَصَّك مميزًا فالتزم، وإلا ستصير كاتبًا عاديًّا. النصوص المميزة ليست نصوصًا عادية، ولا تُكتب في ظروف عادية.

هززتُ رأسي موافقًا نفسي، ثم ضغطتُ زر الماء، رتّبتُ ملابسي، غسلتُ يديَّ، ثم غادرتُ دورة المياه.

تذكرتُ وأنا أجفف يديَّ من الماء متجهًا إلى مقعدي أنني لم أستمع إلى التسجيل، رفعتُ يدي لأطلب الحساب فلم أجد الشاب، ورغم أن الخدمة ذاتية في المقهى فإنني وجدتُ ورقة الحساب على الطاولة، فوضعتُ المال فوقها ولملمتُ أغراضي ثم عدتُ للبيت.

***

تسجيل..

منذ زمن، حين لم أكن أعرف ما أريد، أو دعني أقول: في أثناء مدة التدريب، كنت أمتلك مسدسًا من تلك التي يلعب بها الأطفال في الأعياد، تلك التي طلقاتها من خرز، وكانت عندي ورقتان طبعتُ عليهما رسمًا بيانيًّا بمحورين، أفقي وعمودي، في المحور العمودي للرسمة الأولى أضفتُ السنوات، كما أضفت في المحور الأفقي أشهر السنة، كنت ألصق الورقة على حائط الغرفة ثم أبتعد إلى أقصى حد ممكن ثم أطلق النار.

لنفرض جدلًا أنني أحصر المحور الرأسي بالسنوات بين ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠، وجاءت الرصاصة موازية لعام ١٩٨٥، هذا الرقم يحدد سنة ولادة الكاتب، ثم بالتركيز على المحور الأفقي تجد أن الرصاصة جاءت بمحاذاة أحد الأشهر، شهر ٧ على سبيل المثال، هنا تبدأ الشخصية بالتشكل بالنسبة إليَّ، لأن الأشهر تساعدني في تحديد إلى أيٍّ برج تنتمي الشخصية، الأمر الذي يسهّل عليَّ بناء صفاتها، تمنحها بعضًا من خيالك، وتزودها بالروح التي زودتك بها طلقة المسدس، فتعيش هذا الشخصيات في روايات، بهذه الطريقة.. ولو مجازًا، كنتُ أحاول الانتصار على واحد من أهم أسباب الموت، الرصاصة، بتحويلها لسبب من أسباب الحياة.

– والآن؟

– والآن ماذا؟

– تقول إنك كنت تفعل هذا في الماضي، في أثناء مدة التدريب، على حد تعبيرك.

– نعم، أما الآن فما عدتُ أحتاج إلى استراتيجيات خلق تساعدني، صرتُ حقيقيًّا أكثر، أتفهمني؟

– هل لك أن تفصِّل أكثر؟

– كما أريتك في قفص الهامستر، بالنسبة إلى الورقة الثانية فهي ورقة الخريطة، أعني أنك تحتاج إلى تحديد المكان كما حددت الزمان وعمر الشخصية وصفاتها، فإن كنت تريد لأحداث الرواية أن تكون في بلد محدد، فما عليك سوى أن تطبع خريطة البلد، ثم تذهب إلى آخر الغرفة وتطلق النار، الرصاصة تحيي المكان، هل تفهمني؟ وقد تحتاج إلى رصاصتين أو أكثر، الأمر متروك للحبكة.

– أفهمك، ولكنني ما زلتُ أحتاج إلى أمثلة لأفهم أكثر.

– لا تستعجل، ستعرف كل شيء.

– حسنًا.

– الخطوة التالية هي الانتقال إلى التشكيل، تشكيل القالب الحكائي، هذا ما ستقوم به داخل قفص الهامستر، هناك أخطط لخط سير القصة، وأضع الحواجز والعقبات التي ترتب علاقة الشخصيات ببعضها وغيرها من العناصر المهمة التي تحتاج إلى ترتيب.

– ثم تبدأ في الكتابة؟

– ليس بعد، بل أعطي نفسي الفرصة لتمثيل الشخصية أمام الكاميرا في كادر التصوير، كلما

أتقنت الدور كانت قدرتي على وصف الشخصيات والغوص في التفاصيل أكبر، هل تفهمني؟ والعكس بالعكس.

– ما الذي يحدث إن شعرت أنك لم تتقن الدور؟

– أتريّث، حتى أصل إلى نسبة إتقان مُرْضِية

– ثم تبدأ في الكتابة؟

– هههه ليس بعد، أبدأ في المشي.

– هل من الممكن أن توضح أكثر؟

– أبدأ في المشي بالشوارع، لا أبحث عن شيء معيّن، أعني أنني أبحث عن شيء ما، ولكنني لا أعرف ما هو حتى يظهر لي، هل تفهمني؟

– لا والله، لا أفهمك هههه.

– هههه لا مشكلة، ثمة تفاصيل، التقاطات عادية جدًّا، لكنها تحتاج إلى من ينتبه لها، مثلًا، ترى طاحونة هواء متوقفة، فتدرك أن توقف الهواء سبب توقفها، وصفٌ كهذا قد يكون مناسبًا على لسان امرأة فقدت حبَّ حياتها، فتقول: كان لي زوج وغاب مثلما تغيب الريح عن أذرع الطواحين.

ترى رجلًا يبتسم في وجه حبيبته وهو يمسح خدها، فتقول: مسحة البستانيّ على خد الزهور. تقرأ أن أصل حجر كريم هو الفحم، فتقول على لسان امرأة تأنّب زوجها: لا أحفل بعينيك الفحميتين وإن كانتا ستصيران حجرين كريمين بعد حين.

التقاطات من هذا النوع، هل تفهمني؟

– تقريبًا.

– التقاطات لها علاقة بالشمس والظلال، بانعكاس أشعة الشمس على الرخام، بالرطوبة فوق أي سطح قد يخدم النص. هذه الالتقاطات تحتاج إلى عدسة مكبرة، أخرج لأمشي، وأُشهِرها في وجه كل شيء.

– أن تقول: هل تفهمني؟ هههه

– هههه.. هل انتهينا؟

– أعتقد ذلك.

تم هذا التسجيل في اليوم الذي تلا حادثة انهياره من البكاء. بعد أن انتهينا من التسجيل، حملتُ حقيبتي واتجهتُ إلى المقهى، صار لديَّ روتين ما، كنت أظن ذلك، أستيقظ في الصباح، أقيس مثلث الضوء الذي تصنعه الشمس، ثم أتجه إلى بيت الأزرق، ثم إلى المقهى لأكمل الكتابة حتى الليل، ثم

أعود إلى البيت.

***

في اليوم الذي يليه، كان مثلث الضوء أكبر منه في اليومين الماضيين، عجّلتُ بروتين الاستيقاظ، ثم اتجهتُ إلى بيت الأزرق من جديد، طرقتُ الباب مرتين ثم دخلت، كان كل شيء طبيعيًّا، الأزرق في المطبخ، وأنا في غرفة المعيشة أجهز آلة التسجيل للبدأ في العمل اليوم. سلمت عليه من هناك:

– صباح الخير.

فردّ باندفاع وسعادة:

– صباح النوووور.. أهلًا أهلًا.

خمنتُ أنه يعدُّ القهوة، وقد صدق تخميني حين جاء من هناك حاملًا فنجانين له ولي:

– أحلى فنجان قهوة للأستاذ.

– شكرًا.

كانت طاقته الإيجابية معدية. سألته بنبرة المقروص أكثر من مرة:

– هل سنشربها اليوم أم مثل كل يوم؟

– هههه، سنشربها.. أو ربما لا، مَن يدري.

وفرط من الضحك مرة أخرى.

لا أستطيع حتى الآن التأكُّد من أيٍّ من الشخصيات الحقيقية هو، يبدو حقيقيًّا الآن، حقيقيًّا حين يمثل إحدى الشخصيات، حقيقيًّا حين يقرأ نصًّا، وحقيقيًّا حين يستطرد في الكلام، حين يبكي وحين يضحك، يبدو حقيقيًّا في كل شيء تقريبًا، إلا أن ما أشاهده هو حقائق كثيرة غير مرتبطة إلا بشخصية المؤدي، صرخت جوّاي: «وجدتها! ما أراه منه هو حقيقة مجزأة». وسرحتُ، قلتُ في نفسي: «كل مشهد حضرته للأزرق هو مشهد حقيقي ولكن بشكل منفصل. يعني: حين بكى، كان هذا مشهدًا حقيقيًّا لشخص حقيقي يبكي، ولكنه ليس للشخص الحقيقي نفسه الذي يضحك الآن». هززتُ رأسي، ثم انتبهت لشرودي، وحين عدتُ منه، كان الأزرق متجهِّمًا، ويحدّق إليَّ، سألني بنبرة جدية وهو يضيِّق عينيه:

– ما الذي يشغل بالك؟

أجبته:

– لا شيء.

سألته محاولًا تغيير سياق الحديث:

– هل نبدأ التسجيل؟

سألني وهو ينظر في الفنجان:

– ما الذي تريد أن نتكلم عنه اليوم؟

– أريد أن نتكلم عنك.

ازدادت الحدة في نبرة صوته.

– عنِّي؟ ما الذي تريد أن تعرفه عنِّي؟

قلتُ وأنا أتفحص ردّة فعله، وقد تسلل إليَّ شيء من الخوف من طريقة تحوّله السريع:

– من أنت، عمرك، حياتك الخاصة، عائلتك.. كل ما ترغب في مشاركته مع الجمهور.

ظل صامتًا وهو ينظر في الفنجان، ويدوِّر القهوة المتبقية فيه.

فاجأني باقتراحه:

– لمَ لا نبدأ بك؟ تعال.

وضع فنجان القهوة من يده وأقعدني على الكرسي في كادر التصوير. سألني بتوتر يقصد آلة التسجيل:

– كيف تعمل هذه الزفت؟!

– بالضغط على الزر.

قاطعني وقد بدا عليه الاستياء رافعًا يده في الهواء.

– خلص خلص.

ثم ضغط زر آلة التسجيل.

– تفضل.

– اسمي عبد الله، عمري ٣٨ سنة، وأعمل صحفيًّا في القسم الثقافي لصحيفة معروفة.

– احكِ لنا عن حياتك الخاصة.

– لا حياة خاصة لديَّ.

– عائلتك.

– لا عائلة.

– هذا مثير للاهتمام، حدثنا أكثر عن ذلك من فضلك.

(كان يحاول تقليد المذيعين.)

- أنا يتيم.

- أب وأم؟

- نعم، يتيم أب أم.

- هل ثمة تفاصيل ترغب في مشاركتها معنا؟

- لا تفاصيل أشاركها معك.

هنا، استجمعت قواي ونهضتُ عن الكرسي، ثم اتجهتُ صوبه:

- أعطني الجهاز، إنه دورك الآن.

ثم دفعته إلى كادر التصوير.

- تفضل.

- أنا الأزرق.

- اسمك الحقيقي؟

- لا أعرفه.

- حياتك الخاصة؟

- ليس لديَّ حياة خاصة.

- العائلة؟

- ليس لديَّ عائلة.

(كان صوته حين قال هذه العبارة قديمًا ومعروفًا بالنسبة إليَّ.)

- هذا مثير للاهتمام، حدثنا أكثر عن ذلك من فضلك.

(كنت أنسخ ما قاله لي محاولًا تقليد أدائه.)

- أنا يتيم يا رجل!

(انتفض قلبي في صدري.)

- أب.. وأم؟

- نعم، يتيم أب وأم.

- هل.. هل ثمة تفاصيل ترغب في مشاركتها معنا؟

سألته بارتباك مَن أدرك للتو شيئًا وما زال يحاول التأكد منه.

– أنت تعرف كل التفاصيل التي تسأل عنها.

شُدهتُ، واتسعت عيناي عن آخرهما حين نهض عن الكرسي ثم تقدم مني وحضنني.

– لحظة، عامر! صرختُ فيه: عاامر!

كنتُ أرغب بشدّة في احتضانه، وأحاول أن أبعده عني حتى أتمكن من رؤية وجهه باللحظة ذاتها.

– هل هذا أنت؟ هذا أنت؟ عامر؟

كان يضع رأسه على كتفي ويشدني إليه دون أن يجيب.

– بدي أشوفك!

رفعتُ شعره الطويل عن وجهه، وأخذت أتفحّصه بعيني، إنه هو، كيف لم ألاحظ حتى الآن أنه عامر؟

– لقد كشفتني إذن.

– لقد استطعتَ أن تخدعني طيلة الوقت!

ظللتُ تحت تأثير الصدمة لمدة من الوقت، لم أعرف من أين أبدأ في السؤال. لقد كان نحيفًا ذو لحية خفيفة لم تتجاوز حدود ذقنه تحت شفته السفلى، أما الآن فقد اكتسب كثيرًا من الوزن وبدى شَعورًا؛ كثيف الشعر، كانت المرة الأخيرة التي التقينا بعضنا فيها هي المرة التي دفع بها إليَّ بمجموعة الأوراق التي لم يستطع تحويلها إلى رواية ثم غاب، حدث ذلك منذ زمن طويل، بعد تخرجنا من الجامعة مباشرة. أما المرة الأولى، فقد كانت في دار الإحسان لرعاية وتأهيل الأيتام في منطقة الرصيفة عام ١٩٩٠.

كنتُ أستذكر كل هذا تحت تأثير الصدمة، فلم أنتبه لصوت خرخشة ضئيل يصدر عن تحريك قدمي اليسرى.

سألتُ نفسي: «هل هذه سلسلة؟ قيد؟!»

***

ابتعدتُ عنه خطوتين، في حين ظل صامتًا وأنا أسحب قدمي اليسرى محدثةً قرقعة عرفتُ سببها، ولكنني لم أعرف غايته. كانت السلسلة تمتد إلى أن تغيب في إحدى الغرف الداخلية.

– أنت تقيِّدني؟ جاوبني؟

وركلتُ السلسلة وقد عجزت عن فتحها بيدي.

– كان من المفترض أن يحدث هذا بطريقة أخرى.

– كيف يعني بطريقة أخرى؟

– أنت خرّبتَ كلَّ شيء يا رجل، كان ينبغي أن أكلمك اليوم عن المرحلة الأخيرة، حيث أشرح لك

معنى سرقة الشخصيات من أصحابها، ثم أستطرد بالحديث عن الراوي والزمن والبحث والتقصي وغيرها من المواضيع المتعلقة بالكتابة، ولكنك أدركت شيئًا لم ينبغِ لك أن تدركه في هذا التوقيت، وأنا عرفتُ أنك أدركته حين شرد ذهنك فيه. أنا آسف لم يكن لديَّ خيار آخر.

بدا عليه التوتر، لم يكن يعرف ما الخطوة التالية، فأربكه ذلك وجعله عاجزًا عن التفكير.

سألته بحنق:

– تقصد أنني أفسدتُ عليك السيناريو؟

ثم كزرت على أسناني:

– Sonder؟

– لقد كشفتني يا رجل!

وأخذ يشدّ على يديه ويفركهما حتى شعرت بأنه سيؤذيهما.

– حسنًا، فكَّ قيدي يا عامر.

زادت حدة فركه ليديه:

– لا أستطيع.

– ما المغزى من تقييدي من الأساس؟

– كان ينبغي أن أريكَ اليوم شيئًا لا تستطيع أن تغادر بعد أن تراه.

قلتُ وأنا أحاول انتزاع ساقي من القيد:

– تستطيع أن تريني أيَّ شيء دون حاجة إلى تقييدي.

– أرجوك أن تفهمني، لقد حدث خلل في الزمن الكرونولوجي، ولكنني لا أستطيع التوقف الآن، علينا أن نكمل ما بدأناه.

شعرتُ في هذه اللحظة أننا لا نتفاهم جيدًا، أركّز على حرّيتي، ويركز على قصته، وأدركتُ مقدار مرضه بالقصة التي يحاول كتابتها، تطور الأمر ليتعدى مجرد تداخل بين عالمي الواقع والكتابة إلى توحدهما في رأسه، كان يريد الاستمرار، لديه هدف يسعى للوصول له، دون الالتفات لأيِّ شيء سواه. همستُ لنفسي: «أنا مجرد شخصية في روايته». ثم عزمتُ على المتابعة وتحيّن الفرصة المناسبة.

– ما الذي تريد أن أراه؟

قال:

– شكرًا على تفهّمك!

ثم استدار حولي، وعاد إلى كادر التصوير. وأخذ شهيقًا طويلًا ثم ابتسم:

– بقيَت المرحلة الأخيرة قبل أن أبدأ في كتابة الشخصيات.

فهمتُ أنه عاد ليكمل دوره في كادر التصوير، وعليَّ أن أعود للقيام بدوري.

سألته مسايرة لما يريد:

– وما المرحلة الأخيرة قبل الكتابة؟

– التقمّص.

قالها والتمعتْ عيناه:

– أتقمص الشخصيات، أراقبها حتى أُصيِّرها.

– تفعل ذلك عن طريق مراقبتها في الشوارع، وفي أماكن عملها، وفي المناسبات.

– هذا ما قلته لك سابقًا، ولكن هذا ليس دقيقًا. أنا آسف، لم أعتقد أنك ستكون قادرًا على تقبل الحقيقة مع بداية حديثنا، فأضمرتُ نيتي بالعودة لها فيما بعد.

– وها نحن بالـ «فيما بعد»، ما الذي تقوم به، ما «الدقيق» الآن؟

– أراقب الشخصيات من كثب، ولكن دون الحاجة إلى ملاحقتها أو تصويرها أو أي شيء من هذا القبيل.

– إذن؟

وانتظرتُ ليكمل كلامه.

– لست بحاجة إلى ذلك.. لأن الشخصيات التي أعمل عليها الآن هنا.. كلها هنا.

وأشار بسبابته إلى أرضية الغرفة.

– ما الذي تقصده بأنها شخصيات هنا؟

وأشرت بسبابتي كما أشار.

– هنا، في هذا البيت.

بلعتُ ريقي وأنا أنظر في عينيه.

تردد قليلًا، ثم قال:

– اسمح لي أن أريك ما لديَّ.

واندفع إلى إحدى الغرف الداخلية وأشار بيده أن اتبعني، فمشيت بحذر خلفه، وصوت السلسلة يقرقع مع كل خطوة أخطوها. فتح باب الغرفة، وغاص فيها قبل أن ينحرف يمينًا ليدخل في غرفة أخرى، لحقتُ به فسمعتُ صوت القطّ الذي سمعته مرارًا في أثناء زياراتي لهذا البيت. وما إن انحرفتُ يمينًا خلف الأزرق –أقصد عامر– حتى صرختُ ثم فقدتُ وعيي.

***

الفصل الرابع

Lutalica

(هويّتك التي لا تشبه أحدًا)

صحوتُ على صفعات متكررة ورائحة بصل كريهة، كان قد حشره عامر في أنفي لأستعيد وعيي.

– من هؤلاء؟

حاولتُ أن أصرخ وأنا أقولها ولكنني لم أستطع.

– الشخصيات.

قالها ببرود، كما لو أنه يشير إلى مقتنياته:

– هذا أحمد الذي قلتُ لك إنني سأُعرِّفك على لقبه لاحقًا حين سألتني عنه في قفص الهامستر، وهذا سائق شاحنة سابق، وهذا الحرامي.

كان يشير إلى ثلاثة رجال، حقيقيين، مقيّدين في أقفاص وُضِعتْ في زوايا الغرفة الثلاث.

حجم القفص متر مربع تقريبًا، كانوا في حالة مزرية، وبحاجة ماسة إلى تدخل طبي.

قلتُ وأنا أزحف مبتعدًا على فخذي محاولًا الاستناد إلى الحائط:

– فُكَّ قيدي الآن عامر!

– لا تقلق، لن أقيّدك بالطريقة التي قُيِّدوا بها أو أضعك في قفص.

ما إن انتهى من الجملة حتى أصدر أحمد صوتًا أدركتُ معه أن صوت القط في موسم التزاوج ليس إلا صوتَ صراخه من الألم، كان غير قادر على الكلام. انتبه عامر إلى عينيَّ وأنا أراقبه، فاقترب منه. سألني وهو يُقرِّب رأسَه إلى رأسِه حتى لم يعد بينهما إلا شبك القفص:

– هل تتذكر هذا؟

قلتُ في نفسي: «هل تتذكر؟ هل يقصد أنني أعرفه من قبل؟!».

– لا، لا أعرف مَن هذا.

– الزمبرك، أحمد الزمبرك الذي اعتدى عليك حين كنتَ طفلًا في التاسعة من عمرك.

تفحصتُ وجهه، لم أعرفه، تذكرتُ اللقب والاعتداء بالطبع ولكنني لم أتذكره.

سألته وأنا ما زلتُ أتفحص وجهه من خلف قضبان القفص:

– ما الذي أدراك أنه هو؟

– هو اعترف لي.

– اعترف؟

– كلّهم اعترفوا، هلَّا أعطيتني فرصة حتى أشرح لك؟

لم أكن أريد أن أعطيه فرصة ليفعل أو يقول أيَّ شيء، ولكنني لم أكن بوضع يسمح لي بالتمرد عليه،

كما أنني، خجلًا أقولها، شعرتُ جواي بشيء من الرضى عن الحال التي وصل إليها الزمبرك، لقد ترك هذا الرجل في حياتي أثرًا لا يمكن محوه. الذين تعرضوا لاعتداء كالذي تعرّضتُ له سيفهمون شعوري، لا الزمن ولا طبطبة الأحبة ولا نجاحات العالم كلها تستطيع أن تنسيك اعتداءً جنسيًّا تعرّضتَ له وأنتَ طفل ضعيف، لن تستطيع أن تنسى مَن استغل ضعفك ويتَّمك لينقضَّ عليك.

استندتُ إلى الجدار ثم أشرتُ بيدي أنْ قل ما لديك.

– حسنًا، حسنًا، كنت في مرحلة المشي التي كلمتك عنها سابقًا، أمشي وأحاول اصطياد مشهد غير مألوف لأضعه في روايتي، وصلتُ إلى مقهًى في الوسط التجاري وجلست أراقب الناس وأبحث عن شيء لا أعرف كنهه حين سمعتُ الزمبرك يحدِّث رجلًا يجلس معه على الطاولة نفسها:

الزمبرك: مش بَحبِّلَّك أختك، بَحبَّل عيلتك كلها ولا، أنا الزمبرك يا جوز العاهرة.

لمع اسمه في ذهني، في حين كان الرجل الذي يجلس معه مطأطئ الرأس ذليلًا بلا حول ولا قوة، فلم ينبس ببنت شفة.

حين غادر المقهى تبعته ولديَّ شعور يتملكني بأن هذه طريق ينبغي أن أمشيها، راقبتُه، وحاولتُ فهم نمط حياته الذي لم يتعدَّ تقريع الناس والتعدي عليهم وانتهاك حرماتهم، وأخذ أموالهم، واستغلال ضعفهم، لم أرَ فيه إلا الشر، ومع ذلك أعطيته فرصة لتصحيح خطئه، تبعته إلى أحد المقاهي مرة، ثم قعدتُ إلى الطاولة التي سبقني وقعد إليها.

بررتُ له قعودي إلى الطاولة معه، وذكرته فيك، وشرحتُ له بأدب جم كم تتأثر حياة الناس باعتداءات كالتي يقدم عليها، ورجوته أن يتوقف عن التعدي على الآخرين، فما كان منه إلا أن شدني من قميصي، ونزل بي درج المقهى كما لو كنتُ كيس قمامة ثم فتح سكينه ومررها على وجهي.

توقف عامر عن الكلام، وأخذ يريني أثر الموس على وجهه، كان يباعد بين شعر لحيته ويرفع شعر رأسه. لقد كان الجرح أكبر وأعمق بكثير مما ظننتُ حين انتبهتُ له في المرة الأولى.

– ما الذي حدث بعد ذلك؟

– لا شيء، أخذني هو بنفسه إلى مركز الشرطة، وقبل أن ندخل إلى هناك فتح سكينه مرة أخرى ومررها على ساعد يده، وحين دخلنا إلى هناك حرر شكوى ضدِّي!

– أدخلك إلى مركز الشرطة وشكى عليك؟

– نعم، كانوا يعرفونه، ويعرفهم بأسمائهم، قال لواحد منهم، هذا الشب ظربني وظربته! سألني الشرطي: بتحب تشتكي؟ فجاء صوتُ الزمبرك من خلف صوت الشرطي: والله يا ريت يا سيدي.

فهمتُ في حينه أنه في حال اشتكيتُ عليه فسيُزجُّ كلانا في النّظارة حتى يُنظَر في أمرنا، وأنني في أحسن الأحوال قد أدخل السجن عند أصدقاء الزمبرك لعدة شهور.

هززتُ رأسي:

– فقررتَ أن لا تشتكي.

– هذا ما حدث بالفعل. ولكنني بعد أسبوعين تقريبًا استطعتُ أن أجيء به إلى هنا على اعتبار أن هذا بيت دعارة. تظاهرتُ أنني امرأة تدعوه عبر الهاتف إلى مقابلتها، ثم تمكنتُ من القبض عليه.

صدّقتُه، أنا متأكد من أن تمثيل دور امرأة أمر يسير بالنسبة إليه، ولكنني لم أغفل عن ارتباط هذه الشخصية وإتيانه بها بما حدث لي.

– تريد أن تقول إنك فعلت هذا من أجلي؟

– لا، لم أفعل أي شيء من أجلك، فعلتُ هذا من أجل إيقافه عن التعدي على الناس، لم تكن أنت ضحيته الوحيدة، ولم تتوقف ضحاياه حتى جئتُ به إلى هنا.

لا أنكر أنني شعرتُ برغبة في ركل الزمبرك على خصيتيه رغم حاله المزرية، لطالما راجعتُ نفسي في الليالي لأنتهي بمسامحة الناس على كل الأذى الذي تعرضتُ له في حياتي، ولكنني لم أستطع مسامحة الزمبرك على ما فعله بي، من الصعب أن تسامح شخصًا على حدث اخترق تكوينك الشخصي في مرحلة لم تكن فيها سوى طفل يفتقر إلى ظهر يحميه.

لقد سبق واعترفتُ بحادثة الاعتداء لعامر في إحدى الليالي التي كنا نجتمع بها في دار الأيتام، انتظرت حتى صرنا وحدنا، ثم قلتُ إن من اعتدى عليَّ لقبه الزمبرك ولم أستطرد. قلتها، ومرّ الأمر بسهولة تمنيتها وحصلتُ عليها. أردتُ أن أقول سرِّي دون أي ردة فعل مفترضة، أن أقوله دون أن يتعاطف معي أحد، أن أبوح به وحسب، وهذا ما منحني إياه عامر في تلك الليلة، لم يعقِّب على شيء، كان أذنًا مصغية وحسب، الأمر الذي جعلني ممتنًّا لردة فعله تلك.

– قل شيئًا يا رجل.

– أريد أن أسمع منه، لماذا لا يستطيع الكلام؟

– لأنني أحرقتُ لسانه.

– وما الذي يجعلك أفضل منه في هذه الحالة؟ لقد آذى الناس، وها أنت تؤذيه؟

– لقد أُجبرتُ على إيذائه، أما هو فقد اختار أن يتعدى على الآخرين ويستمر في ذلك، ألا يُعدُّ ذلك فرقًا بالنسبة إليك؟

لم أعقّب، وحوّلتُ نظري إلى القفص في الزاوية، فانتبه عامر إلى حركة عينيَّ.

– أما سائق الشاحنة هذا فقد قتل أمي، لم يقصد ذلك بالطبع، إلا أن قتله امرأةً وحيدةً ترعى يتيمًا ثم معرفته بذلك، لم يجعل منه شخصًا أفضل.

أشرتُ بإصبعي إليه دون أن أقول شيئًا.

ردّ على إشارة إصبعي:

– نعم إنه هو.. لكن تدهور السيارة لم يكن ذنبه، ما جعلني أجيء به إلى هنا هو طريقة روايته القصة أمام الآخرين. لقد كان يسخر من أمي حين قضت نحبها فاغرة فمها من شدة الخوف، كما سخر من ردة فعلي وأنا أنظر إلى أمي التي حُشِر جسدها الهش بين الشاحنة وحائط المخزن الذي كنا نعيش فيه.

استغربتُ من أن يَشهد عامر كل هذا، كما لو أنه بطل فلم رديء يوجد دائمًا في المكان الذي يريد له المؤلف أن يوجد فيه.

– كيف عرفت أنه يسخر من أمك -رحمها الله- ومنك؟

– أحببتُ فتاة وتقدمتُ لخطبتها، بعد عدة زيارات لعائلتها عرَّفتني على عمها الذي كان مسجونًا وقد أُطلِق سراحه للتو، سألتها عن سبب وضعه في السجن، فقالت: شيكات بنكية، ولم تعقّب. وحين جلسنا معًا إلى طاولة العشاء، عرَّفني بنفسه وببطولاته السابقة، وكان من ضمنها قصة نجاته من تدهور شاحنة كان يقودها في حي النزهة عام ١٩٩٠. قال إن امرأة حمقاء عرَّضتْ حياة ابنها للخطر من جرَّاء سكنها في مخزن تجاري، وإن ما حدث ليس إلا سببًا من أسباب الله لمعاقبتها على سوء اختيارها، كان يسرد القصة وهو ينظف ما بين أسنانه يا رجل! فأحضرته إلى هنا لأريه شيئًا من أسباب الله ومعاقبته المسيئين. كلما سألني: لماذا؟ أجيبه: إنما أنا سبب من الأسباب، أما إن كنت تسأل عن الحكمة فلا علم لي.

– هل يستطيع الكلام؟

– لا، حرقتُ لسانه هو الآخر.

صـــمـــتْ

– ما الذي حلَّ بعلاقاتك مع الفتاة.

– تركتني بعد أن ترك الزمبرك علامة في وجهي، لا أحد يُزوِّج ابنته رجلًا لديه علامة مثل هذه في وجهه.

قلتُ دون أن أحوِّل نظري للقفص الأخير.

– والأخير؟

– هذا! هذا أوسخ الثلاثة، يسرق حيوات الناس ليكتب قصصًا ويحظى بالجوائز.

– كما تسرق حياته وحياة شخصين آخرين الآن؟

– لكنني لا أحظى بجوائز من جراء ذلك. أبطال قصص هذا الرجل ضحايا، يأخذ قصصهم ثم يزيد عليها من مخيلته دون مراعاة لأصحابها، دون أي تعديل، لقد دمَّر حياة إحدى شخصياته من جراء قصة نشرها عنه، ذكر اسمه وتفاصيل مثل الحي الذي يعيش فيه، واصفًا البيت الذي يسكنه، وأن له أختًا مارس معها السفاح. حين جلس مع الرجل ليحكي له قصته لم يأتِ على ذكر

أي شيء عن علاقة غير أخلاقية بينه وبين أخته، لم تكن لديه أختٌ من الأساس، لكنه ارتأى أن يضيف هذه الحيثية ليجعل القصة أكثر إثارة، وأبقى على الاسم ووصف المكان ليضفي شيئًا من الحقيقة على القصة، ويُحدِث ضجة تنشهر القصة من خلالها.. وهذا ما كان. وقد جئتُ به إلى هنا تحت تأثير رغبته في كتابة قصة جديدة.

– هل كان يعنيك الرجل صاحب القصة؟

– كان الرجل أبي.

صـــمـــتْ

أنا مشوَّش الآن! نفضتُ رأسي كما لو أنني أحاول تنظيفه من عوالق لم أعد أستطيع تفسيرها. إن كان الرجل الأخير هو الكاتب، هل هذا يعني أن عامرَ تقمَّص شخصيته؟

اللعنة! كان يبدو صادقًا فيما يقول، أقول يبدو، وأعني مشاعره وعينيه وطريقة السرد ولغة الجسد، كل شيء يوحي بأنه يقول الصدق، إلا فيما يتعلق بحرق لسان الثلاثة، لم أصدقه، أحسست بأنه إنما فعل هذا ليجعل منهم عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم.

أمعنتُ النظر في وجوه الثلاثة في الأقفاص، الزمبرك، سائق الشاحنة، الكاتب، تمعّنت فيه، فشعرتُ كما لو أنني تلقيتُ صفعةً من داخل رأسي.

صرختُ في وجه الأزرق، وأنا أشير إلى الرجل في القفص:

– هذا الكنترول! جامع الأجرة!

شعرتُ أن الهواء صار ساخنًا في حنجرتي، وأحسستُ كما لو أنني أشهق نارًا مدخلًا لهيبها عميقًا في رئتي.

– هذا الحرامي!

– بل اختلقتَ هذه القصة لتجيء به إلى هنا كما جئت بي. (لم أستطع أن أقولها بصوت مرتفع).

عرفتُه حين نظرتُ في عينيه، إنه جامع الأجرة الذي أساء معاملتي في الحافلة وأنا متجه إلى مكان إقامة الأزرق في المرة الأولى. حسنًا، اثنان من الثلاثة المحتجزين هنا كانوا قد أساؤوا إليَّ، الزمبرك وجامع الأجرة، ولكنني لم أفهم سبب إحضاره سائق الشاحنة، هل أساء إليَّ سائق الشاحنة؟

ولكن! إن كان ينتقم لي من شخصياتٍ أساءت إليَّ، فما الذي جعله يجيء بي أنا إلى هنا؟ تساءلتُ وأنا أكرر محاولات تحرير ساقي من القيد.

بالكاد استطعت الكلام:

– لماذا جئت بي إلى هنا؟

أجاب بسرعة كما لو أنه توقّع هذا السؤال، ومستعدٌّ للإجابة عليه:

– لسببين لا ثالث لهما: لتخرجني من المأزق الذي وضعتُ نفسي فيه، ولتكتب القصة التي

وعدتني بكتابتها.

- وكيف لي أن أخرجك من المأزق الذي وضعتَ نفسك فيه؟

- قبل كل شيء، أريد أن أقول إنني لم أُرِد أن أجيء بهؤلاء إلى هنا، لقد حدث ذلك رغمًا عني، لم أخطط لأيٍّ من هذا، هل تفهمني يا رجل؟ أما بالنسبة إليك، فليس ثمة من داعٍ لتذهب إلى المقاهي لتكتب، سأرتب لك كل شيء هنا.

- هل كنت تراقبني؟

- ليس تمامًا.

- كنت تراقبني كشخصية في قصصك.

- أنت شخصياتها يا رجل.. الشخصية الأكثر فاعلية.

- ماذا لو رفضتُ؟

- سينتهي الأمر بوجود أربعة أشخاص مقيَّدين في بيتي، وسيتعقَّد الأمر أكثر.

لقد أُسقِط في يدي، فكرتُ بالأمر، ولم أحدس بنيةٍ مبيتةٍ لإيذائي، كل ما يريده مني أن أكتب، ولو فعلتُ سأستعيد حريَّتي، أردتُ التصديق بهذا، إذ لا خيارات سوى أن أفعل أي شيء يريده في سبيل الخلاص.

قلتُ له:

- سأفعل.

فأطلق زفيرًا طويلًا يُنبئ براحة نفسية كبيرة:

- شكرًا لك، وسأقوم بما يجب عليَّ فعله بالمقابل.

***

الفصل الخامس

Koinophobia

(الخوف من أن تعيش حياة عادية)

لم يتدخَّل الأزرق بأي شيء بعد موافقتي على الكتابة، كان يجيء ببعض الفضول إليَّ، يقرفص كما كان يفعل في المقهى سابقًا، يصنع قهوتي، يقعد أحيانًا لبعض الوقت ثم يمضي، يسألني عن حالي في بعض المرات، غالبًا ما كان يغيب ويغيب معه صوت الزمبرك الذي ما انفكّ يشبه صوت قطّ في موسم التزاوج.

قال لي مرة: إنّ الكتابة مجرّد نقل ما في عقلك إلى الورق، وهي على الرغم من بساطة وصفها فإنها من أصعب الأعمال في العالم.كان يغمز ويلمز عن نفسه أغلب الوقت، ويهيِّئ لي كل عوامل النجاح في مهمتي، وقد طلب مني على استحياء أن يضع عنوانًا لقصته حين أنتهي من كتابتها، فسمحتُ له بذلك، ثم صافحني بحرارة واستأذنني لإجراء مكالمة هاتفية، ثم عاد إليَّ وفي فمه ابتسامة رضا:

– لقد انتهينا، أشكرك على كل شيء، أجريتُ اتصالاتي، سيجيء الناس بعد قليل، أرجو أن تكون مستعدًّا لفضولهم، أما أنا، فكما وعدتك، سأقوم بما يجب عليَّ القيام به، فهلَّا تكرَّمتَ عليَّ بتسجيل أخير؟

قلت وأنا أنظر في عينيه:

– نعم، سأفعل.

كانت عيناه بعيدتين، كما لو أنهما كوكبان يسبحان في فضاء بعيد داخل محجريهما.

سحب الكرسي الوحيد، ثم قعد في كادر التصوير وسألني:

– هل أنت مستعد؟

أجبته:

– نعم.

كانت أشعة الشمس تصنع مثلثًا استطالت أضلاعه كثيرًا هذه المرة من بين شفرات مروحة المطبخ التي توقفت عن الدوران.

قال :

– آه، تذكرت.

ثم نزل عن الكرسي واتجه نحوي وحرر ساقي من القيد ثم عاد إلى موقع التصوير، سعل مرتين، وبدأ في الكلام:

لن تتوقف الشكوك، ولن تصل في آخر الأمر إلى ميناء سلام، ستظل أيام الكآبة تجيء محملة بمتاعها الثقيل حتى لو تحققتْ كل أحلامك، لو انتهى بك المطاف إلى حضن مَن تحب، ولو امتلأت خزائنك بالمال، حتى وإن درتَ العالم كله بشغف وفرح غامرين، ستجلس فوق قمة جبل ما، أو على باب خيمة، أو غرفة فندق، أو أمام مدفأة في ليالي الشتاء، وحيدًا ومشتاقًا إلى شيء ما خفيّ.. وبعيد..

إنها لحظة الأفول..

لن يستطيع أحد أن يملأ هذا الخلل الذي جواك، لا الحبيبة ولا الأصدقاء.. ولا الأبناء ولا أم رؤوم، ولا المغامرات التي راهنتَ عليها، ثمة علَّة فيك لا يمكن إصلاحها، علّة تقتضي الجلوس عند المغيب، متخففًا من كل شيء، والانحناء بجبهتك، ببطء شديد، كما لو أنك بطل مشهدٍ، لنباتٍ شوكيٍّ، يموت.

إنه الألم النهائي الذي لا يترك ندوبًا نعبأ بها أو خدوشًا، الألم الذي يُفاجئ المسكنات، ويحل دون دعوة أو سبب..

إنه الألم الذي يدفعك

مثل قطيع

يرمي نفسه

كاملًا

عن السفح الأخير.

ثم لوّح لي بيد شبه مفتوحة وأطلق النار.

***

الفصل الأخير

بينما يفتح عينيه، سمع الجرو -كما يبدأ المشردون أيامهم- صوت سيارات متنوعة تقطع الشارع الرئيس دائم الاكتظاظ في وسط البلد، أزال عن وجهه الأغطية التي يلف بها جسده كشرنقة، ونظر من حوله ليجد نفسه في مثلث الشمس الكبير، وقد انعكست أشعته عن باب البنك العربي المذهَّب، فرك عينيه، ثم تحسس قفص الهامستر الذي لا يفارقه أينما حل أو رحل.

– صباح الخير يا جرو

– صباح الخير أبو علي.

لقَّبه الناس بالجرو لصغر حجمه، كما لم يُعرف له اسم غير هذا مذ ظهر للمرة الأولى في وسط البلد.

سأله أبو علي وهو يعرف الإجابة مسبقًا:

– عندك قصص جديدة اليوم؟

قال:

– قصة جديدة كل يوم.

ثم اتّكأ على مرفقه وأزاح الأغطية واضعًا قفص الهامستر فوق فخذيه متحمسًا لروايتها.

– إنت يا جرو، في رأسك قصص أكثر من الكتب التي أبيعها.

بدا الجرو غير منتبه لما قاله أبو علي، أخذ يرتب الشخصيات على عجل في أماكنها كما يفعل لاعب متحمس فوق رقعة الشطرنج، ثم أمسك واحدًا منها بغضب وقرَّبه إليه واضعًا عينيه في عينيه:

– اسمع يا هذا! حين آمرك أن تموت ستموت، لا تعاند! أُحْييك متى أشاء، أميتك متى أشاء، وأفضل ما يمكنك فعله في حياتك أو مماتك أن تكون بيدقي!

ثم ابتسم في وجه أبو علي وقرَّب إليه شخصية من «الليجو»:

– هذا هو الأزرق، وهو يسكن في بيت شعبي في منطقة الغويرية، وهذا عبد الله.

ومد إصبعه مشيرًا إلى الشخصية نفسها حين قاطعه أبو علي مربتًا على كتفه:

– حكيت لي هذه القصة يا جرو.

سأله الجرو وعيناه تلتمعان:

– وهل قلتُ لك إن عبد الله كان يخرج كل يوم من البيت ليأخذ دورة كاملة في باص الحي دون أن يدفع الأجرة ثم يعود للبيت ذاته؟

قال أبو علي رافعًا كتفيه:

– لا، هذا تفصيل لم تخبرني عنه.

ثم ضيَّق عينيه محاولًا مراجعة تفاصيل القصة التي سمعها مرارًا دون أن ينتبه.

سأل أبو علي وهو يمعن النظر في القفص بين يدي الجرو:

– والآخرون؟

– أيُّ آخرين؟

وانفجرت ضحكة في وجهه قبل أن يهمّ بالوقوف حاملًا قفص الهامستر بين يديه، ثم غاب في زقاق قريب.

النهاية

****

شكر وعرفان

امتناني لكل من كان لهم يدٌ في إنجاز هذه الرواية:

هاني نديم، هاشم غرايبة، أحمد خيري العمري، رأفت سفيان، عبد الرحمن عقاب، حسن مريم، أشرف ريحان، أحمد سراج، نذير الزعبي، كامل قلالوة، معتصم الحوراني.